الفصل الثالث

فترة الازدهار الاخيرة

في سنة ٥٣١ م اصيب قباذ بالمرض فاملى بمشورة ماهيود احد عظماء الفرس ومستشار الملك وصيته الاخيرة بولاية كسرى من بعده. وقد كتب ماهيود الوصية فختمها الملك ثم اسلمها اليه وتوفي قباذ بعد ذلك بقليل. وقدم ماهيود الوصية الى مجلس العظماء وكان عليه ان يقرر حسب العادة من يرث العرش وقد وافق الاعضاء بالاجماع على رأي ماهيود وهو ان ارادة الملك هي القانون (٩١).

واغلب الظن ان قباذ بعد هلاك المزدكية خطا اولى الخطوات الى تحقيق برامجه في الاصلاح وقد انتهى نهاية طيبة في عهد خليفته، ولعله اقترح في هذا البرنامج نظام اصلاح الضرائب الذي اكسب كسرى المجد (٩٢).

لقد شهدت ايران خلال عهد الساسانيين ثلاثة من الملوك المعروفين وهم اردشير المؤسس وسابور الثاني وثالثهم كسرى انوشروان. ويمكن اعتبار ارتقاء كسرى الاول عرش ايران افتتاحاً لازهى عصر من عصور الدولة الساسانية لانه قد قضى على البدع التي اتت بها جماعة مزدك، كما ساد الامن في حكمه داخل البلاد ولكنه كان آمناً حزيناً لقوم منهكين فقراء من كثرة مالقوه من الفتن وسوء الحكم الذي عم جميع طبقات الشعب (٩٣).

---

(٩١) الطبري ــ التاريخ ١ / ٨٨٦، كرستنسن ــ ايران ص ٣٤٦ ــ ٣٤٧.

(٩٢) اليعقوبي ــ التاريخ ١ / ١٤٢، الطبري ــ التاريخ ١ / ٨٨٥، وانظر كرستنسن ــ ايران ص ٣٤٦.

(٩٣) كرستنسن ــ ايران ص ٣٤٨، باقر ــ ايران ص ١٤٣.

ويشعر المتتبع لاحداث تاريخ ايران ان هذه الامبراطورية غدت تستند على اساس ضعيف وانها معرضة للانهيار بين اونة واخرى لذلك كان لابد من القيام بالاصلاحات الضرورية السياسية والاجتماعية والتنظيمية (٩٤).

ويبدو واضحاً ان قباذ ادرك حاجة البلاد الى مثل هذا الاصلاح لكنه سلك طريقاً يناقض المتوارث الاجتماعي للسلطات ويخالف الاوضاع العامة المقبولة في عالم ذلك الزمان وذلك عندما تبنى الافكار المزدكية في مشاريع اصلاحه. فادى ذلك الى زيادة تفاقم التناقض بين طبيعة الدولة ونظامها، وبين ماتهدف اليه الافكار المزدكية فتمزق النظام الاجتماعي بسبب الخلل الذي اصاب بناءه الاقتصادي وتفاقمت الاخطار الخارجية من ضغط الهون والهياطلة والداخلية بسبب الصراع المرير بين الطبقات الارستقراطية وارثة المال والارض والسلطات وبين جماهير الشعب الفقير من فلاحين وحرفيين صغار وعبيد. لذلك وجب على كسرى تفادي تدهور البلاد، ومسك الامور بيد حازمة والبدء باصلاحات اقتصادية وادارية اراد من ورائها تثبيت البناء الاجتماعي للدولة (٩٥).

وقد حفظ لنا الطبري نص الخطاب الذي وجهه الملك كسرى انوشروان الى حاكم القسم الشمالي من الامبراطورية الساسانية الذي ورد فيه تبيان الوضع العام الذي تعيشه الدولة آنذاك كما كان وراءه نقد متعمد لسياسة قباذ. وانه ــ اي كسرى ــ سيحافظ على السلطة الملكية من اعتداء اي رجل كان. كما انه عازم على استخدام جميع قواه المادية والمعنوية لاصلاح المفاسد التي تئن البلاد منها (٩٦).

وهكذا اصبح انوشروان عماد السلطة كلها. فهو يحكم النبلاء كما يحكم افراد الشعب وكذلك خضع له رجال الدين وقد جاء في الكتاب المسيح بلتنسر وهو الكتاب الذي تظهر فيه سياسة كسرى انو شروان الاول ان الملك هو (النظام بين الرعية والجيش، وهو الزينة يوم الزينة) وهو الدفاع والملجأ يوم الخوف من العدو (٩٧).

---

(٩٤) باقر ــ ايران ص ١٤٣.

(٩٥) باقر ــ ايران ص ١٤٣.

(٩٦) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٨٩٢ ــ ٨٩٣، وانظر / كرستنسن ــ ايران ٣٤٨ ــ ٣٤٩.

(٩٧) كرستنسن ــ ايران ص ٣٤٩.

وقد عزم كسرى على ان يحكم كما يريد، وان لايجيز تدخل النبلاء ولكي يضعف نفوذ رئيس الوزراء (بزرك فرمادار) حول بعض اعماله الى كبير الموظفين (٩٨).

وفي الواقع ان كسرى انوشروان قد استفاد من كافة الظروف التي شهدتها ايران قبل حكمه. فكانت اجراءته تحاكي النظم المتوارثة وروح العصر. ففي الوقت الذي حافظ فيه كسرى على حقوق وامتيازات الطبقة الارستقراطية التقليدية مكنه الاستفادة من ضعفها بسبب ماصادفته على عهد قباذ والافكار المزدكية. فعمد كسرى الى خلق ارستقراطية جديدة موالية له وتدين له بالفضل. حيث استند عليها في تنفيذ بقية خطواته ولان هذه الارستقراطية الجديدة قد شعرت بفضله الكبير عليها قبلت التخلي عن بعض امتيازاتها في السلطة، فكان من نتيجة ذلك ان كلمه الف شروان واوامره قد اصبحت نافذة دون اية معارضة (٩٩).

فمركز القائد العسكري الاعلى للجيش وهو منصب متوارث ومحصور في عوائل معينة وزعه كسرى بين اربعة اقسام ووضع على رأس كل قسم منه في بعض الاحيان رجلاً لايمت بصلة الى العوائل التقليدية التي كان رجالاتها يتربعون على هذا المنصب لذلك وبسبب نجاح كسرى في خطواته تلك، فقد بلغت ايران مستوى سياسياً وعسكرياً رفيعاً وازدهرت الحياة فيها وقوى بناؤها الداخلي وهابها الاعداء. فتمكن النظام الساساني ان يبقى لفترة اخرى على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهها بعد عهد كسرى (١٠٠).

لقد بدأ كسرى اصلاحاته بالقضاء على الفوضى التي احدثها اتباع مزدك، فرد الاموال الى اهلها منقولة كانت او ثابتة. وجعل من الاموال التي لاوارث لها رصيداً

---

(٩٨) كرستنسن ــ ايران ص ٣٤٩.

(٩٩) باقر ــ ايران ص ١٤٣.

(١٠٠) وكان القائد الاعلى للجيش يسمى (ايران ــ سباهبذ) فالغى انوشروان وظيفته وقد دون لنا المؤرخ المسعودي رواية طريفة خاصة بهم. فهو ينسب الى اردشير الذي تنسب اليه كل تفاصيل النظام الاداري انه رتب المراتب فجعلها سبعة ارواح كما رتب الطبقات الاربع من اصحاب التدبير. انظر مروج الذهب ١ / ٢١٦ وانظر الطبري ــ التاريخ في الوظيفة العسكرية الجديدة ١ / ٨٩٤. كرستنسن ــ ايران ص ٣٥٥، باقر ــ ايران ص ١٤٣ ــ ١٤٤.

لاصلاح ماقسد.. وأمر ان كل امرأة غلبت على نفسها ان يؤخذ الغالب حتى يغرم مهرها ويرضي اهلها، وتخير المرأة بين البقاء معه او ان كانت لزوج سابق ردت اليه ويروي ايضاً ان المرأة المغتصبة ان لم تكن من طبقة الغاصب فطلاقها منه واجب وانكح بنات العوائل التي تضررت او مات اولياء امورهم وجعل جهازهم من بيت المال، كما زوج شبابهم من بيوتات الاشراف، وامرهم بملازمة بلاطه ليستعان بهم. وهكذا اوجد انوشروان طبقة مع الارستقراطية تدين له بالولاء والطاعة (١٠١).

وامر بكري الانهار وحفر القنى وتسليف اصحاب العمارات وتقويتهم. وامر باعادة كل جسر قطع او قنطرة كسرت او قرية خربت وان يرد ذلك الى احسن ماكان عليه من الصلاح. كما امر بالنظر فيما تهدم من المساكن والقرى. حيثما عجز الملاك عن المحافظة عليها وعلى ادوات الري والترع فاعان اهلها لاصلاح حالهم وامدهم بالمواشي. واعيد بناء القرى التي خربت، واقيمت الجسور الخشبية التي كسرت وبنيت الجسور الحجرية التي انهارت. ثم اقيمت الحصون في الاماكن المعرضة للعدو (١٠٢).

واتجه كسرى الاول لاصلاح نظام الضرائب وطرق جبايتها ونسبتها بحيث جعل لها علاقة بنوع الغلة وموقع الارض واختار كسرى رجالاً اكفاء عرفوا بالنزاهة واوكل اليهم جباية الضرائب كذلك غير كسرى نظام الضريبة الشخصية ففرضه على من يتفاوت عمره بين العشرين والخمسين سنة من الرجال واستثنى منه اهل البيوتات والمرازبه (رؤساء القرى) والاساورة (المقاتلون والفرسان) والكتاب ومن كان بخدمة الملك وجعل جباية الضرائب في اوقات ثابتة من السنة (١٠٣).

لقد ذكرنا سابقاً كيف ثبت أن كسرى انوشروان قد استفاد من الاوضاع السيئة التي كانت تعيشها العامة والتي كانت وراء ثورتها على عهد قباذ تحت لواء المزدكية، فعدل الملك الضريبة الشخصية وفقاً للقانون الذي اعده رجال مختصون.

---

(١٠١) كرستنسن ــ ايران ص ٣٣٩ ــ ٣٥٠، باقر ــ ايران ص ١٤٤.

(١٠٢) كرستنسن ــ ايران ــ ص ٣٥٠.

(١٠٣) للوقوف على تفاصيل النضام الضرائبي انظر: الطبري ــ التاريخ ١ / ٨٩٢ كرستنسن ــ ايران ص ٣٥٠ وما بعدها. باقر ــ ايران ص ١٤٤.

بالنظام المالي اختارهم الملك بنفسه وعرفوا بالاستقامة والنزاهة وعهد اليهم القيام بهذا العمل. وهكذا ترى انه قد قسم من فرضت عليه الضريبة الى طبقات كثيرة حسب ثرائهم. فمنهم من كان يدفع اثني عشر درهماً، ومنهم من يدفع ثمانية، ومنهم من يدفع ستة. واكثر الشعب كانوا يدفون اربعة دراهم وكانت الضرائب تجبى كل ثلاثة اشهر. وقد اودع كسرى نسخة من نظام الضرائب الجديد في سجلات الدولة، وارسل نسخاً اخرى الى موظف ادارة الضرائب في الاقاليم والى جميع قضاة المراكز الذين كان من اختصاصهم النظر في عدالة الجباية (١٠٤).

واعفى من الضريبه العقارية كل من تضررت ارضه بسبب الافات من الضريبة لتلك السنة وطلب انوشروان من قضاة المراكز ان يرفعوا الى الحكومة المركزية بياناً بالاراضي المعفاة ليتسنى للحكومة اخبار الجباة عنها، وليراقب بنفسه اية تجاوزات قد تلحق باصحاب تلك الاراضي من سوء تطبيق قوانين الضرائب (١٠٥) وتحول كسرى نحو الجيش والنظام الحربي عامة في ايران وادخل فيه تغيرات اساسية وكان ينشد من وراء هذه التغيرات تحويلة لاداة قوية حديثة وطيعه بيده لتقوية سلطانه في الداخل وتحقيق مطامعه في الخارج فشمل الاصلاح الحربي الجنود واسلحتهم وقادتهم، فاولى اهتماماً كبيراً بالاساورة (الفرسان) الذين يشكل القوس والسهم عدتهم الرئيسية في الحرب. وجعل الفرسان من اسر النبلاء الصغيرة والفقيرة وكانت العادة ان تصرف هي بنفسها على عدتها العسكرية فامر لهم كسرى بالمال والدواب والجرايه لتقويتهم وربما لاستمالتهم الى جانبه عند الحاجة بوجه اسر النبلاء الكبيرة. لذلك اصبحت هذه الفئة من الجند تمثل مرتبة رفيعة في الجيش الساساني من عهد كسرى شروان الاول واصبح لها رئيس واحتل بعضهم مناصب رفيعة في الدولة كما حدث للقائد الذي غزا اليمن وهو من الفرسان فعينه كسرى والياً عليها (١٠٦).

---

(١٠٤) الطبري ــ التاريخ ١ / ٩٦٠، كرستنسن ــ ايران ص ٣٥٢.

(١٠٥) الطبري ــ التاريخ ١ / ٩٦٢، كرستنسن ــ ايران ص ٣٥٢ باقر ــ ايران ص ١٤٤.

(١٠٦) للوقوف على تفاصيل الاصلاح العسكري والنظام الحربي للدولة الساسانية انظر / الطبري التاريخ ١ / ٩٦٣ وما بعدها، كرستنسن ــ ايران ص ٣٥٣ وما بعدها. باقر ــ ايران ص ١٤٤ ــ ١٤٥.

حارب كسرى بعض الامم واعظم فيها القتل ويحدثنا الطبري عن انتصاراته ضد (البارز) وام (صول) و (جول) وغيرهم من الشعوب وقتل منهم خلقاً كثيراً (١٠٧) وقد اكد المؤرخ البلاذري ماقام به كسرى من نشاط في المجال العسكري اثناء حديثه عن مدينة باب الابواب (دربند) الحصينة حيث ابقى فيها كسرى على بعض من هذه الاقوام مستفيداً منهم في تحصيناته العسكرية على الحدود (١٠٨).

وهكذا تمكن كسرى الاول من اعادة بناء الدولة الساسانية لتقف على قدميها منيعة ويقف على رأس هذا البناء القوي ملك دان له الجميع بالتأييد. وعندها وجد انوشروان نفسه في وضع عسكري وامني داخلي يؤهله لتحقيق طموحاته واعادة امبراطورية ايران على سابق عهدها ايام اردشير.

حقيقة ان السلم قد استتب مع بيزنطة في سنة ٥٣٧ م وهي السنة الثانية من حكم كسرى انوشروان ولكن كانت اثاره الحرب متوقعة دائماً كما كان مركز أيران ضعيفاً امام الهياطلة من ناحية اخرى فقد كانت ايران في موقف ذليل منهم اذ كان عليها ان تدفع جزية سنوية لملكهم (١٠٩).

كما ان النزاع بين دولة الغساسنة عرب الشام وهي تابعة لبيزنطة ودولة الحيرة عرب العراق التي خضعت احياناً لحاكم ايران سبباً في قيام الحرب بين الدولتين الكبيرتين (١١٠).

وهكذا نجد كسرى الاول قد تذرع بهذه الخصومات لشن هجومه على البيزنطيين فاستولى على مدينة الرها سنة ٥٤٠ م ومنبج وحلب وانطاكية وكانت افضل مدن الشام فاستولى على كنوزها وثرواتها وسبى اهلها واسكنهم مدينة بناها لاجلهم اسماها (رومية) جنب المدائن وبعد سلسلة من الحروب كان زمام المعركة

---

(١٠٧) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٩٩٥.

(١٠٨) فتوح البلدان ص ٢٢٣.

(١٠٩) كرستنسن ــ ايران ٣٥٧، باقر ــ ايران ص ١٤٥.

(١١٠) الطبري ــ التاريخ ١ / ٩٥٨ وفيه تفاصيل كثيرة عن العلاقات بين الغساسنة والمناذرة / انظر: العلي صالح المحاضرات ٥٦ ــ ٦٤ وما بعدها، العلي ــ جواد المفصل ٤ / ٤٦ وما بعدها ١٤٥، وما بعدها.